بسم الله الرحمن الرحيم

الأسس الإنسانية للحضارة العربية

الأستاذ الدكتور/ السيد محمد بدوى

تعتبر الحضارة العربية إحدى الحضارات الكبرى التي ظهرت فى تاريخ البشرية . بل إن هناك فريقا من العلماء يؤكدون أنها أطول الحضارات العالمية عمراً وأعظمها أثراً فى العديدة الحديثة . اذ سيطرت هذه الحضارة على الفكر الأوربى طوال القرون الوسطى ، وذلك حين أحيا العرب التراث الفلسفى لليونان ، ثم نشروه فى قالب جديد بعد أن صهروه فى بوتقة عبقريتهم الفذة ، وأضافوا إليه إضافات جديدة تدم على ملكاتهم الفكرية الخلاقة .

فقد كان العرب يشتغلون بالفلسفة والعلم ، ويؤسسون أعظم الحضارات فى الوقت الذى كانت أوربا يخيم عليها الظلام والجهل . ويصور هذه الحقيقة أبلغ تصوير الأستاذ « فيليب حتّى » ، فى كتابه « موجز لتاريخ العرب » ، إذ يقول : «إن مفكرى العرب كانوا يدرسون أرسطو ، ويكتبون الشروح على فلسفته ، فى الوقت الذى كان فيه الامبراطور « شارلمان » ورجال بلاطه لا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم . وفى الوقت الذى كانت فيه « قرطبة » ، مركز حضارة الأندلس ، تزهو بمكتباتها السبع عشرة المليئة بالكتب والمؤلفات العلمية ، وكان علماؤها وكبراؤها يقضون أوقات فراغهم فى حمامات فاخرة ـ فى ذلك الوقت كان أساتذة جامعة أكسفورد يعتبرون غسل الجسم من أكبر الأخطار التى تهدد حياة الإنسان .

وليس بالمرء حاجةٌ إلى أن يكون فيلسوفاً عميق الفكرة ، بعيد المقدمات لكى يستنتج من هذه الظاهرة العجيبة ، وهى ظاهرة الانتشار السريع للحضارة العربية ، أنها لا بد أن تكون قد حوت من عناصر الحق والخير والجمال كلّ ما تتطلبه الفطر السليمة ، على اختلاف مشاربها وأساليبها فى الحياة ، وأنها لا بد محققةٌ لكل ما تطمح اليه الأمم والشعوب من أسباب القوة والرغد .

ان فى سرعة انتشار هذه الحضارة ، فى عالم يبلغ خمسَ الكتلة البشرية على الأقل ، وبين شعوب وجماعات مختلفةٍ فى ألسنتها وألوانها ونزعاتها ، وطبيعة أرضها ، وطبيعة جوها ، وأسلوب حياتها ، وإن فى قابليتها لزيادة الانتشار على الدوام كلما رُفعت الحواجز المصطنعة من طريقها - إن فى ذلك كله لآيةً بينةً على مبلغ ما فى طبيعة هذه الحضارة من إشباعٍ لحاجات العقول والقلوب ، وتوفيةٍ لمطالب الأفراد والجماعات ، ومجاوبةٍ للفطرة الإنسانية السوية .

وقد كان العرب ، فى انتشارهم ، ينشرون دينهم ولغتهم ، بل إن ثقافتهم ونموذج حياتهم كانا يطغيان على الحضارات الأخرى التى سبقت حضارتهم كحضارة اليونان والرومان والفرس . وازدهرت الحضارة العربية فى الأندلس مدة ثمانية قرون ، لم يشهد التاريخ فترة مثلها حضارة وازدهاراً . وإذا كان العرب قد فارقوها ملكا وحكما فإنهم لم يفارقوها أثراً ورسما .

وتتصل جذور التراث الحضارى العربى بنظامين متباينين من نظم المعيشة : التقاليد البدوية ، وحضارة مجتمع حضرى ثابت قديم . فمن حياة البدو أخذ العربى مجموعةً من الصفات ذات قيمة إنسانية عظيمة : حبَّه للحرية ، وشعورَه بالمساواة ، والمحافظةَ على الكرامة . ولقد حاول الاستعمار أن يطمس هذه المعانى من نفوس أبناء العرب ، من أجل أن ينسيهم حقيقة ماضيهم . وعمد بعض المؤرخين الأجانب أن يشبهوا البداوة بالهمجية التى حطت على أوربا ، وخربت الحضارة الرومانية إبان القرن الخامس للميلاد . وحاولوا أن يجدوا نوعا من الرابطة أو التشابه بين بداوة العرب وهمجية « الهون » و « الوندال » و « القوط ».

ولكن الحقيقة أن بداوة العرب لم تكن بالصورة التى صورها المؤرخون المغرضون . فمن المعروف أن الهمج الذين خربوا الحضارة لم يكن لهم تقاليد ، ولم يعرفوا غير حمل السيف للنهب والسلب . أما العرب فقد كان لهم آدابٌ من شعر ، وخطابة ، وبلاغة أصبحت مضرب الأمثال . وكانت لهم تقاليد الفروسية

التى نقلتها عنهم أوربا . وقد حمل العربُ مشعلَ الحضارة وحدهم مايناهز على ستة قرون . فهم الذين عملوا فى الواقع على تراجع الهمجية التى أنتشرت فى أوربا إذ كانت غزواتُ أهل الشمال قد هزتها هزاً عنيفا .

وإلى جانب هذه الأصول البدوية للثقافة ، نمت فى الجزيرة العربية مدنية «متحضرة » قبل الإسلام بعدات السنين . وكان مقر هذه المدنية الركنَ الجنوبىَ من الجزيرة حيث أزدهرت مدة ألفى سنة ، من حوالى ١٥٠٠ ق . م . إلى عام ٥٠٠ ب . م . ومن أشهر الحضارات التى أزدهرت فى ذلك الحين حضارةُ مملكة سبأ . ويستدل من السدود التى بنيت لحصر المياه ، وللشبكات الواسعة التى انشئت لتأمين الرى على أن هؤلاء القومَ كانوا على علم واسع بالهندسة .

وتوطدت دعائمُ المجتمع العربى على أسس إنسانية قوامها « المساواة » ، «والعدالة » . فلم يجعل فروقاً بين الأسود والأبيض ، أو الغنى والفقير ، أو السيد والعبد . وكان هذا أكبرَ عامل على اتحاد جميع الشعوب التى انضمت تحت لواء العرب على اختلاف أجناسها وألوانها . ونتج عن هذا الاتحاد فى الفكر والعاطفة تحطيمُ الحواجز التى كانت تحول دون ظهور الكفاءات ، وأصبحت فرص التقدم مهيأة أمام كل إنسان بعد أن كانت وقفا على طبقة محظوظة . فأصبح للحياة معنى ، وبرز الشعور بالكرامة ، وبالقيمة الإنسانية . وقد أكد هذه الحقيقةَ الأستاذ «هاريسون » فى كتابه : « العرب فى وطنهم The Arab at Home ، إذ يقول: « فحيث حلت حضارةُ العرب تأكدت قيمةُ الفرد ، ونهض الناس معتزين بكرامة لا تُقهر » . كذلك فإن من أهم الأسس الإنسانية للحضارة العربية ظاهرتين لم يسع المحققين من علماء أوربا إلا الاعترافُ بهما والتنويه بشأنهما : فأما الظاهرة الأولى فهى ظاهرة « الأخوة » التى تسمو على كل الفوارق العنصرية ، وتمحو كلَّ الحواجز الإقليمية وإن اختلفت إدارتها ورياستها العليا . فلقد أتى على العالم العربى حين من الدهر ، فى مدى القرنين الرابع والخامس من الهجرة

(العاشر والحادى عشر الميلاديين) ، كان يتولى الخلافةَ فيه ثلاثةُ خلفاء فى وقت واحد : خليفةُ عباسىٌ فى العراق ، وخليفةُ أموى فى الأندلس ، وخليفة فاطمى فى مصر . ومع ذلك كان المواطن العربى الذى يتنقل فى سفره من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، فى امتداد يقطعه الراكب - فى ذلك الوقت - فى عشرة أشهر على الأقل - كان لا يجد حيثما حلّ إلا أخوة ، ولا يشعر حيثما حلّ إلا بأنه فى قلب وطنه . أما الظاهرة الثانية فهى ظاهرة « التسامح » بإزاء الأديان الأخرى . فمع أن الرابطة التى تجمع بين هذا العديد من الشعوب كانت « دينية ، ثم « لغوية » ، إلا أن هذا المجتمع كان يؤمّن لأتباع الديانات الأخرى مكانا معترفا به داخل إطار الوحدة الكبرى . وكان هذا التسامح العربى على نقيض ما انطوى عليه الحكم البيزنطى من تعصب طائفى ، وهو أحد العوامل الرئيسية التى مهدت السبيل أمام التوسع العربى وساعدت على الإسراع فيه . ولقد حاول المؤرخ الألمانى « كريمر Kremer » ، أن يحلل طبيعة هذا التسامح ويتعرف على أسبابه . فنفى نفيا قاطعا أن تكون له بواعثُ سياسية ، وأن يكون هدفُه ، فى نظر أولى الأمر ، هو تمكين قلوب الرعايا غير المسلمين حتى لا يثوروا على الحكم . قال « كريمر » : « كلا . فإن هذه الفضيلة - فضيلة التسامح - لم تكن خاصة بالخلفاء والرؤساء وحدهم بل كانت ساريةً فى الشعب عامة ، ثم إنها لم تقتصر على عصر المسلمين الأوائل فحسب ، بل شملت سائر العصور . وينتهى المؤرخ من تحليله إلى هذه النتيجة : وهى أن من الأسس الوطيدة التى أرست أركانها الحضارةُ العربية ، الفصلَ فصلا تاما بين العقيدة التى يجب احترامُ حريتها عند الآخرين ، وبين المصالح الدنيوية التى تعتمد على الكفاية والأمانة ، والتى لا تميز بين دين ودين ، فى سبيل التعاون لتحقيق المثل العليا الإنسانية » .

وقد قيل إن العرب قد اعتزوا بعصبيتهم . وإذا . كان صحيحا إلا أنهم مع ذلك لم يعرفوا « التعصب » . وشتان بين العصبية والتعصب . فلم يعرف العرب

التعصب كما عرفه غيرهم من الأمم ، وإنما امتازوا برحابة إنسانية رائعة ، وضمير هو ضمير الإنسان .

والإنسان إنما يتميز عن الحيوان بضميره قبل أن يتميز بعقله . فالعقل يشارك بعض الحيوان الإنسانَ فيه ، ولو بأقدار قليلة أو متفاوتة . أما الضمير فينفرد به الإنسان .

ولم تقتصر الحضارة الإسلامية على نشر « العدل » ، و « المساواة » ، و «التسامح » ، بل تعدت ذلك إلى الإقرار بفوائد الاختلاف داخل نطاق الإطار العام. فكانت ترحب باختلاف الآراء والأفكار ، وتشجع الذكاء وتستفيد منه أيا كان مصدره . وبذلك استطاع أهلُ الذمة (وهم أصحاب العقائد الأخرى ،أو الجنسيات الأخرى الذين اندمجوا فى المجتمع العربى) الإسهامَ فى إغناء الثقافة المشتركة ، إذا كان تاريخهم يؤهلهم للقيام بدور حملة تراث البحر المتوسط .

عرفنا نحن العرب ، أننا جزء من الإنسانية جمعاء ، وأننا نتوسط العالم ، وأننا نعطى الناس كما نأخذ عن الناس . وفى الحالات التى شذّ فيها عنصر من العناصر التى تقطن المشرق العربى عن هذا الطابع ، أصبح هذا العنصر منبوذاً ، ونعنى به طائفة اليهود . فطائفة اليهود شذت عما تقضى به طبيعة سكان هذا الإقليم من أنهم جزء من العالم ، يعيشون لأنفسهم ولغيرهم ، ويعيشون بأنفسهم وبغيرهم ، وتقوم صلات التبادل بينهم وبين غيرهم على أساس من العدل والإنصاف والصحبة . فأما اليهود فقد أنطووا على أنفسهم ، بل تذكروا فى كثير من الأحيان لرسلهم لأنفسهم . وترتب على هذا أن الديانة اليهودية لم تنتشر فى الأرض ، وإنما الذى انتشر أو الذين انتشروا هم اليهود . وشتان بين أن ينتشر الناس وبين أن تنتشر أفكارهم وعقائدهم .

انتشار الحضارة العربية :

وانتشرت الحضارة العربية لأنها كانت ـ كما قدمنا ـ تدعو إلى الإنسانية : انتشرت إلى قلب آسيا إلى أرض المغول ، ووصل الإسلام إلى أندونيسيا عن طريق

البحر أى عن طريق التجارة . كما أنتشرت الحضارة العربية فى أرض السودان ، ومن شمال أفريقيا أنتقلت إلى أرض السنغال . انتشرت هذه الحضارة لأن الذين حملوا لواء الثقافة العربية والإسلامية كانوا يمثلون « الإنسانية » ، ويمثلون الضمير الإنسانى .

لقد كنا نحن العرب نعتز بحضارتنا ، وكنا فى الوقت ذاته نعرف لغير حضارتنا من الحضارات قيمتها . وهذه صفة انفردنا بها بين الأمم والشعوب . أما الحضارات الأخرى فكانت تنطوى على نفسها ، أو كانت تزدرى حضارات الآخرين فى كثير من الأحيان : فالصين كانت لها حضارة ، ولكنها بقيت للصين على مر العصور . وكانت الهند حضارة ولكنها اختلطت حتى أصبحت الهند مستودعا لسلسلة من الحضارات المتعاقبة والمتعاصرة فى آن واحد ، كاد معها طابع الحضارة الهندية أن يزول . فالهنود اليوم لا يتفاهمون بلغة واحدة ، وإذا أراد هندى جنوبى أن يتفاهم مع هندى شمالى فكثيرا ما يستخدمان لغةً غريبةً عن الاثنين كاللغة الانجليزية . وكانت للفرس حضارة ولكنها بقيت ضيقةَ النطاق تكاد تقتصر من حيث اللغة على أرض الفرس نفسها . وكانت لليونان حضارة ، ولكنها ماتت على مر الزمن ، ولم تبق ولم تستمر . وكانت للروم حضارة ، ولكنها تمثلت على الخصوص فى نواحى الإدارة أو نواحى التشريع ، أو فى بعض النواحى المادية كمدّ الطرق . فأما العرب فحضارتهم عريقة ، وحضارتهم فى الوقت ذاته مستمرة ، وباقية على الزمن . ولغتنا العربية لغةٌ بقيت حوالى خمسة عشر أو ستة عشر قرنا لغة حية . فنحن اليوم لا نزال نقرأ الشعر الجاهلى ونتذوقه ، فى حين أن الانجليزى أو الفرنسى إذا قرأ شعراً مضت عليه بضعةُ قرون فإنه لا يكاد يفهم منه حرفاً واحداً . وإن فهم شيئا فإنه لا يتذوقه . أما لغتنا فقد احتفظت بحيوية عجيبة : هى قديمة وهى مستمرة ومتطورة مع الزمن . وسر احتفاظها بحيويتها أنها لغةُ القرآن الكريم .

أصالة الحضارة العربية :

وقد ادعى المغرضون من الكتاب الأجانب أن الحضارة العربية ما هى إلا حضارة ناقلة ، لم تفعل أكثر من نقل علوم اليونان . وهذا الادعاء أبعد مايكون عن الحقيقة . فالإضافات التى أضافها العرب إلى علوم اليونان ، ومعالم الحضارة التى ابتكروها مع حفظهم لروح البحث العلمى فى عصر عرّفته أوربا بعصر الظلام ، كل ذلك إنما يُضفى على الحضارة العربية صفة الأصالة والخلق والإبداع .

ولم تصل هذه الحضارة إلى ما وصلت إليه من ازدهار إلا بفضل « تقديس العلم وتشريف العلماء » ، حتى لقد ذهب الناس فى ذلك الزمان إلى القول بأن الكتابة أشرف المراتب بعد الخلافة . وترتب على ذلك أن اشاع الحركة الفكرية عمّ العالم المتحضر فى ذلك الوقت . وكان الخلفاء يدفعون فى الكتاب وزنه ذهبا . وبينما حاول « شارلمان » أن يوقظ أذواق الناس ويوجهها نحو العلم والأدب بدون جدوى ، كان خلفاء بنى العباس يجمعون حولهم أكثر الرجال ثقافة وعلماً من جميع الأقاليم ، وعملوا على ترجمة أعظم المؤلفات ، وجمعوا مكتبات غنية ذاخرة . ويقال إن « الحكم » الأموى فى قرطبة كان يمتلك مكتبة تحوى أكثر من أربعمائة ألف مجلد ، على حين أن ملك فرنسا « شارل الخامس » الذى كان يلقب « بالحكيم Le Sage » ، لم يستطع بعد ذلك بأربعة قرون أن يجمع أكثر من ألف مجلد .

ولم يقتصر العرب على حفظ كنوز المعارف السابقة ، بل أضافوا إليها وفتحوا طرقا جديدة نحو دراسة الطبيعة . وكما يقول « جورج سارتون » فى كتابه « مقدمة تاريخ العلوم » ، كانت اللغة العربية من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم والحضارة للبشرية ، وكان يتعين على من يبغى الإلمام بثقافة عصره وبأحدث صورها أن يتعلم العربية ، وذلك تماما مثلما يحدث فى عصرنا من حيث ضرورة الإلمام بإحدى اللغات الغربية إذا أراد المرء أن يتتبع التطور الفكرى فى العالم .

فضل العرب فى ميادين الفكر والعلوم والفنون :

ونريد الآن أن نجول جولة سريعة لنظهر أثر الحضارة العربية فى التراث الفكرى الإنسانى . ونبدأ بإظهار فضلهم على الحركة الأدبية فى أوربا :

يقول السير « جب » فى كتابه « تراث الإسلام The Legacy of Islam » : « إنه فى نهاية القرن الحادى عشر نشأ فى جنوبى فرنسا نوع جديد من الشعر ينهج منهجا جديداً ، وتميزه صفات نفسية واجتماعية جديدة ، وتصوير خيالى فنى جديد ... وكان هذا الشعر الجديد كثيرَ الشبه بنوع من الشعر المعاصر فى أسبانيا العربية . وهذه القرائن كلها تؤيد ما قد نفترضه من أن الشعر البروفانسى الأول قد تأثر بالنماذج العربية » .

والواقع أن العرب أقاموا فى جنوبى فرنسا ، وبخاصة فى مقاطعة بروفانس ابتداء من منتصف القرن الثامن . فإذا علمنا أن العربىّ كان يقرض الشعر بسليقته ، وأنه كان دائم التغنى بمحبوبته ، أفلا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن هذه الجماعة من العرب قد لعبت دوراً فى نشوء شعر « التروبادور » الذى نشأ فى بروفانس بالذات ؟

وقد ثبت من البحوث العلمية كذلك أن « دانتى » شاعر إيطاليا العظيم قد استوحى فكرة « كوميديته الإلهية » ، التى مثلت ثقافة أوربا المسيحية برمتها فى القرون الوسطى ، استوحاها من مصادر عربية إسلامية ، وبالذات من قصة «الإسراء والمعراج » ومن تعليقات ، وتفسيرات ، المفكرين العرب ، ومن مذاهب الصوفية وعلى الأخص كتابات « محيى الدين بن عربى » . وقد أثبت هذا الرأى عالمٌ أسبانى هو « ميجل آسين بالاثيوس » Miguel Asinel Palacios فى كتاب ترجم إلى الانجليزية بعنوان : « الإسلام والكوميديا الإلهية Islam & The Divine Comedy » (١٩٢٦) . وقد كرّس آسين بالاثيوس أكثر من خمسة وعشرين عاما من حياته فى بحث وتمحيص الفكر الإسلامى الفلسفى والدينى فى

القرون الوسطى - سواء فى الشرق أم فى أسبانيا - وتأثيره فى ثقافة أوربا المسيحية. ومكنته خبرته بفقه اللغة العربية ، بالإضافة إلى تمكنه من فلسفة الكلام ، أن يكشف كشوفا هامة فيما يتعلق باللاهوت ، وكيف أثر ابن رشد فى القديس « توما الأكوينى » ، وابن عربى فى « ريموندلال » ، وإخوان الصفا فى « أرسلمو دى تورميدا » ألخ ... ولكن أهمّ اكتشاف قامت عليه شهرته هو موضوع الكتاب الذى ذكرناه ، ونعنى به اكتشافه أن النماذج العربية ، هى التى أوحت لدانتى بكوميديته الإلهية .

ومن المؤلفات التى أثرت كذلك فى الأدب الأوربى ، مقامات « الحريرى » ، ويرى بعض النقاد شبها كبيرا بين شخصية « فيجارو » التى صورها « بومارشيه » فى مسرحيته المعروفة « حلاق اشبيليه » وبين شخصية « أبى زيد » بطل المقامات . فكلتا الشخصيتين تتألف عناصرها من الدهاء والخبث وسعة الحيلة وحسن التصرف ، كل ذلك ممزوجا بخفة الدم والمرح .

وقصة « دون كيشوت » للمؤلف الأسبانى « سرفانتس » ترجع إلى أصول عربية ، فقد كان المؤلف سجينا فى الجزائر ، وكثيرا ما صرّح بأن مسودات كتابه قد كتبت أولا بالعربية .

وأخيراً لا ننسى أن قصة « روبنصن كروزو » المشهورة التى كتبها « دينو Defoe » مأخوذه من القصة الفلسفية لابن طفيل « حى بن يقظان » . وقد ترجمها إلى اللاتينية « بوكوك » فى عام ١٦٧١ تحت عنوان « الفيلسوف المعلم لنفسه » Philosophus autodidactus » .

أما فى ميدان الدراسات الإنسانية فيكفى أن نشير إلى جهود المفكر والفيلسوف العربى الكبير العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذى شهد له كبار علماء الغرب فى العصر الحديث ، بأنه كان الرائد الأول لعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ . إذ سبق فى ذلك « أوجست كونت » بخمسمائة سنة تقريبا حين كتب « مقدمته »

الخالدة فى القرن الرابع عشر الميلادى (أى الثامن الهجرى) .

فقد أراد أن يكتب تاريخ الدولة الإسلامية كتابة تعتمد على الوثائق وعلى الدراسة الموضوعية . غير أنه رأى بثاقب نظره أن كتابه التاريخ لا تستقيم إلا إذا سبق ذلك دراسة للبيئة والحضارة ، والظروف الاجتماعية التى انبعثت منها حوادث التاريخ . وأصبحت هذه المقدمة فيما بعد أشهر ماكتب ابن خلدون لأنها وضعت أسس ، علم العمران ، أو علم الاجتماع كما نسميه اليوم . وتشتمل هذه المقدمة على دراسة الظواهر التى تتصل بالبيئة سواء أكانت بدوية أم حضرية ، وأثر حياة البداوة أو الحضارة فى طباع الناس وفى عقلياتهم ، ثم دراسة نظام الأسرة والقبيلة ، ودراسة العوامل التى تسمح لبعض الشعوب بالتفوق على غيرها ، ودراسة الاختلافات فى الطبقات وفى الحرف ، وأخيراً دراسة العلوم والفنون وجميع التغيرات التى تنتج عن طبيعة الظروف المحيطة بالمجتمع ، والتى تميز المجتمع بطابع خاص .

ومن العجيب أن علماء الغرب لم يفطنوا إلى القيمة العلمية لهذه المقدمة إلا منذ وقت قريب . فعكفوا على دراستها دراسة دقيقة ، وكتبوا عليها التعليقات والشروح التى تفيد كلها بأن ابن خلدون كان رائدا لكثير من علماء الغرب فى ميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد .

فيقول « جاستون بوتول » - وإليه يرجع الفضل فى توجيه أنظار الغرب إلى أهمية آراء ابن خلدون - يقول « إن ابن خلدون قد أبدى من الآراء ما جعله مبشرا بالأفكار الاجتماعية الحديثة ، وعلى الأخص تلك التى نشرها « منتسكيو » فى أوربا . وإن حديث المفكر العربى العظيم عن صلة الأخلاق بالحضارة تجعله رائدا بالنسبة لآراء « روسو » فى هذا الصدد .

ويقول العالم الأمريكى « ناثانيل شميت » الأستاذ بجامعة كورنيل بأمريكا : « إن حديث ابن خلدون عن خواص الإقليم والأرض والغذاء تجعله مفكراً سابقاً

على مفكرى العصور الحديثة من أمثال «بنسر» . ويشهد العالم الإيطالى «استفانو كلوزيو» أن «المؤرخ العربى العظيم استطاع فى العصور الوسطى أن يكشف مبادىء العدالة والاقتصاد السياسى قبل «كونسيدران» ، و «ماركس» و «باكونين» .

وأخيراً يتوج المؤرخ البريطانى الشهير «أرنولد توينبى» هذه الآراء بتأكيده أن «مقدمة ابن خلدون» أعظم عمل من نوعه أبدعه أى عقل بشرى فى أى زمان ومكان» .

....

ننتقل الآن إلى ذكر فضل العرب فى ميدان العلوم التجريبية والطبيعية . ولا نستطيع أن نذكر قائمة علماء العرب جميعا ، ولذلك سنقتصر على أهمهم :

أهتم العرب بالطب وتفرقوا فيه . وتفوق العرب كذلك فى استنباط كثير من أنواع العلاج ، وكانوا أول من أنشأ الصيدليات ، وكتبوا أول كتاب فى «الفارماكوبيا» .

وأول مستشفى فى العالم الإسلامى أنشأه هارون الرشيد فى مطلع القرن التاسع الميلادى (أى الثالث الهجرى) .

وأهم الشخصيات التى ظهرت فى محيط الطب فى العالم العربى ، «الرازى» ، و «ابن سينا» . وقد اعترف علماء الغرب بفضلهما ، وخلدت كلية الطب بجامعة باريس ذكراهما بلوحتين كبيرتين مازالتا حتى اليوم تحتلان مكانا بارزا فى الصالة الكبرى بالكلية . ومازلنا نحتفظ من مؤلفات الرازى بمخطوطات منها دراسة عن «الحصبة» وأخرى عن «الجدرى» . على أن أهم مؤلفات الرازى هو كتابه الجامع الذى سماه «الحاوى» ، وقد ترجم إلى اللاتينية فى عام ١٢٧٩ ، وترجمه طبيب يهودى من جزيرة صقلية يدعى «فرج بن سالم» . وهو معروف فى العالم الغربى تحت اسم «Continens» . وبعد أن اخترعت

طباعة ظهرت منه عدة طبعات أولها فى عام ١٤٨٦ . وظهرت الطبعة الخامسة فى فينسيا (البندقية) عام ١٥٤٢ . وكما يدل عليه اسمه ، كان هذا الكتاب يهدف لأن يكون موسوعة (انسيكلوبيديا) تضم جميع ماعُرف فى ذلك العصر عن مادة الطب .

ويأتى بعد الرازى - بالنسبة للطب - الفيلسوف « ابن سينا » ، وقد اعتبرت مؤلفاته الأساس الذى لا بد من استيعابه لكل دارس فى هذا الميدان . وتعدد نشر هذه المؤلفات الطبية باللاتينية والعبرية طوال العصور الوسطى . وفى العصور الحديثة تُرجمت أجزاءٌ منها إلى الإنجليزية . وتحتوى تصنيفاته فى « الفارماكوبيا» على ما يقرب من سبعمائة وستين عقاراً . ويقول الدكتور « وليم أوسلر » إن كتاب « الشفاء » لابن سينا قد اعتبر « انجيل الطب » واحتل هذا المركز مدة تفوق بكثير المدة التى احتلها أى كتاب آخر .

ويعد « الحسن ابن الهيثم » أعظم عالم فى الطبيعيات والبصريات . وقد عاش فى القاهرة بين سنتى ٩٦٥ - ١٠٣٩ ميلادية . ويمثل وحده طفرةً كبرى فى تطور البصريات وفسيولوجيا النظر . وقد تُرجم مؤلفه فى « البصريات » إلى اللاتينية والإيطالية ، وأصبح المرجع الأساسى لعلماء الطبيعة . كما كانت أبحاثه التى كرسها لاختراع العدسة المكبرة هى الأساس الذى اعتمد عليه كل من « روجر بيكون » ، وفيتللو vitelo « البولونى » بعد ذلك بثلاثة قرون فى أبحاثهما الخاصة بالميكروسكوب والتلسكوب . ويمكن القول - دون مبالغة - إن أبحاث ابن الهيثم فى علم البصريات كانت النواة الأولى التى انبثقت منها جميع النظريات الأوربية الحديثة ، وأنه حتى ظهور أبحاث « كيلر » ، و « ليونارد » ظلت البحوث فى علم الضوء والبصريات تعتمد كلها على كتابات ابن الهيثم .

ويعتبر « جابر بن حيان » أشهر اسم عربى فى مجال علم « الكيمياء » . وقد عاش فى الثلث الأخير من القرن الثامن (حوالى سنة ٧٧٦) . وبدأ بحوثه كمن

سبقه من علماء اليونان والمصريين من الفكرة التى كانت تقول بأن جميع المعادن الشائعة كالقصدير ، والرصاص ، والحديد ، والنحاس يمكن تحويلها إلى ذهب أو فضه بعد معالجتها بطريقة كيميائية . ولكن فضله الأساسى هو فى إظهار أهمية الوسائل التجريبيه وتوضيح طرق استخدامها . ولذا فقد تقدمت الكيمياء على يديه نظريا وعمليا . وظلت آراؤه مقبوله فى عمومها حتى ظهور الكيمياء الحديثة أى حتى القرن الثامن عشر .

أثر العرب فى ميادين الفن والعمارة :

يعتقد الكثيرون أن العرب الذين برزوا فى الميادين العلمية التى ذكرناها قد قصروا كل التقصير فى ميدان الإبداع الفنى . ويذكرون فى ذلك قول ابن خلدون نفسه فى مقدمته : « ليس للعرب فن إلا فن الشعر » والحق أن ابن خلدون خلط فى هذا الحكم بين العرب الذين عرفوا جميع الفنون الحضارية وبين الأعراب الذين عاشوا فى البادية .

والواقع أن العرب قد أمدوا الأوربيين بمعارف فنية وأصول معمارية تأثرت بها حضارة الغرب إلى حد كبير [1] ومن المعلوم أن فن التصوير والنحت لم يجد رواجا بين العرب الذين كرهوا التماثيل والصور لعلاقتها بالوثنية ، ولكن وطأة هذه الكراهية خفت كثيراً فى مراحل تطورها الحضارى . وقد خلّد العرب مجدهم فى تاريخ الفنون بما أبدعوه من أشكال زخرفية تبدو فى الجوامع والأضرحة والقصور العربية ، ولا ينكر أحد روعة ما عكسته هذه الزخارف من جمال شكلى ، ومدى ما أحدثته مبتكراتها الطريفة من أثر فى الذوق الأوربى .

ولعل الصور العربية التى تزين سقف « قاعه الملوك » فى قصر الحمراء (وهى صور تمثل فرسان العرب ، وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم العربية ،

---

(١) اقتبسنا المعلومات الخاصة بأثر العمارة العربية فى العمارة الغربية من البحث القيم الذى نشره الزميل الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى « دائرة معارف الشعب » رقم ٦٤ عام ١٩٥٩ . القاهره .

وسدّد بعضهم الآخر رماحه إلى صدور أعدائه ، وتمثل كذلك حسان العرب ، وحيوانات وأشجار ونباتات مختلفة) ، لعلها كانت نماذج تعلم منها رسامو أوربا طريقة تزيين أسقف الكنائس والقصور بالصور الملونة واتخذوا منها نقطة انطلاق للتجديد الفنى الذى حققوه بعد ذلك .

وهناك تحفه فنية فى متحف اللوفر تدل على مبلغ ما وصل إليه العرب من مستوى رفيع فى فن الحفر . هذه التحفة التى عثر عليها الأسبان فى قرطبة ، والتى يدل تاريخها على أنها صنعت فى عام ٩٦٨ ميلادية عبارة عن علبة خشبيه اسطوانية حفرت على جدرانها صور نساء يعزف بعضهن على العود ، وتغنى الأخريات ، وصور غزلان وفهود ونمور .

على أن أهم ما يستحق التنويه فى هذا الصدد هو الأثر الكبير الذى أحدثته فنون الموسيقى والغناء والرقص فى فنون أوربا المماثلة لها . إذ يحسب أكثر الناس أن هذه الفنون الثلاثة متخلفة عند العرب ، أو أنها عندهم من لون مختلف كل الاختلاف عن لون نظيراتها فى أوربا ، ولا صلة بين هذه وتلك . ومن ثم لا يكون للأولى أى تأثير فى الثانية . ولكن الذى يدرس تاريخ الموسيقى الأوربية يدرك مدى خطأ هذا القول . ونحن نكتفى هنا للتدليل على صحة ما نذهب إليه بنقل ما ورد فى هذا المجال عن مفكر أسبانى إذ يقول : « لم يكف العرب عن تجديد آلاتهم الموسيقية التى نقلوا أصلها البدائى عن بلاد فارس وغيرها . ثم ابتدعوا « الربابة » من آلة القوس ذى الوتر الواحد ... ومن الربابة العربية عرفت أوربا « الكمنجة » وقد أدخلوا كذلك تحسينات جوهرية على العود والقانون ... ولولا « الكلافسان » التى تولدت من « قانون التخت » ، ولولا « الكمنجة » التى تولدت من « الربابة » لظلت عبقرية « باخ » ، « وموزار » خرساء .

ويقول « فيتسى » بصراحة فى كتابه « التاريخ العام للموسيقى » : « إن الموسيقى الأوربية بدئت فى أواخر القرون الوسطى من أصل عربى » وقد واصل

الشعراء في الأندلس تطوير الشعر ليجعلوه أكثر ملاءمة للغناء فنظموا الموشحات ذات القوافي المتبدلة فازداد فنّ الغناء وفنّ الموسيقى ارتقاء . ويقول « جون روا » في كتابه « مدايح الشعر الغنائي » : « كانت الأغاني العربية الأندلسية تنتشر في سرعة تفوق سرعة انتشار الكتب . وقد ارتقى فن الرقص في أوربا بتوجيه الأندلس وذلك منذ أخذت الأندلسيات يرقصن في قادس لأول مرة على أنغام الصاجات ومختلف الآلات الموسيقية .

خاتمـــة :

وبعد فهذه أطراف من أمجاد العرب ، ولو استطردنا في حصرها والإلمام بجوانبها المتعددة ، في شتى ميادين العلوم والفنون ، لاحتجنا في ذلك إلى عدة مجلدات .

فما هي الدروس المستفادة من عرضنا لهذه الأسس الإنسانية للحضارة العربية ؟ ما هي الدروس المستفادة بالنسبة لحاضرنا الذي لا يعكس - بكل أسف - الصورة المشرقة لماضينا ؟

لقد عمّت حضارتنا العالم في العصور الوسطى ، وكانت ملء السمع والبصر، ونحن اليوم لا في العير ولا في النفير . وتبدلت الصورة المشرقة إلى صورة مظلمة ، وحلّ محلّ الازدهار الذبول والإنكسار .

ما السبب في كل هذا ؟ السبب هو أننا أهملنا هذه الأسس الإنسانية التي تكلمت عنها ، ولياليتنا أهملناها فقط ، بل إننا أحللنا محلها مبادىء خاطئة مفسدة : فحلّ محل التسامح والسماحة التزمت والتعصب ، وحلّ محل العدل ، الظلم والجور، وحلّ محل الانفتاح على العالم والاستنارة (وأقصد بالانفتاح الانفتاح الثقافي لا الانفتاح الاقتصادي) حلّ محله الانغلاق وضيق الأفق . وحلّ محلّ الإخاء والوحدة ، التنابذ والفرقة .

وأصبحنا نسمع اليوم عبارات غريبة مثل : إدانة ونبذ العلم «الـ ستورد»

متناسين قول نبينا الكريم (صلوات الله عليه) : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » : ونسمع عن الدعوة إلى « الأصولية » التى اقتصر أصحابها فى فهمها على الفقه وتطبيق الشريعة وعلى بعض المظاهر الشكلية المتصلة بالملبس والهندام . ونحن نقول لأصحاب هذه الدعوة : ولماذا لا تشمل الأصولية العودة إلى الأصول أى إلى الجذور التى أنبتت حضارتنا فآتت أكلها بعد حين بإذن ربها ؟ وأعلن الأصوليون الحرب على الفنون والموسيقى مدعين أنها تثير الغرائز وتصرف الناس عن ذكر الله ، مع أن المسلمين فى أوج حضارتهم وأيمانهم قد ضربوا بسهم وافر فى شتى مجالات الفنون والموسيقى . وأهمل العلم ، وحلّ محله خليط من الدروشة والشعوذة، مع أن حضارتنا الحقيقية ، ما قامت إلا على تقديس العلم وتشريف العلماء .

نحن لا ننكر أن التطور الذى تحتمه طبيعة الحياة الحديثة ، فى عصر العلم والاختراعات ، يجب ألا ينسينا تقاليدنا القويمة . غير أن المجتمع الذى يتعلق بأهداب التقاليد دون أن يكون له من المرونة ما يجعله يساير روح العصر ، ويتمشى مع الأوضاع الجديدة للحياة ، مجتمعٌ مقضىٌ عليه بالتأخر والتخلف .

إن الحضارة التى نريد أن نشيدها على أنقاض تخلفنا الحالى لا بد أن تقوم ولا بد أن تستند إلى أسس إنسانية عميقة ، يتصل من خلالها الشعب العربى اتصالا صحيحا بالإنسانية كلها ، ويتفعل انفعالا صادقا بآلامها وآمالها ، ومشكلاتها وأهدافها ، ويترجم هذا الانفعال إلى عمل إيجابى ومواقف عملية .

إن الفهم الصحيح الواعى للوجود العربى لا بد أن يستمد من عناصر حضارتنا الإنسانية التى تقوم على أساس احترام الإنسان ، واحترام حقّه فى الحياة الحرة الكريمة . ولا بد أن يستهدف هذا الوجود إرساء جميع العلاقات الإنسانية على أسس الحق والعدل ، والبعد عن التعصب والإنعزالية ، والاعتراف بمبدأ الأخذ والعطاء القائم على الإفادة من تجارب الإنسانية .

إن العرب في ماضيهم قد عملوا على نشر رسالة الحضارة والإخاء ، وتطوير العلوم والمعارف خدمة للإنسانية . فهل لنا أن نأمل في أن يتخذ علماء اليوم وقادته من هذا المثل الأعلى نبراساً لهم يهتدون به لتحقيق ما تصبو إليه الإنسانية من خير وسلام ؟